مقياس منهجية و تقنية البحث التاريخي (1) .
السنة الثانية ليسانس
المحاضرة رقم 5
العلوم التي لها صلة بالتاريخ (1)

إنّ المقبل على دراسة التاريخ يجب أن تكون بضاعته مقبولة على أقل تقدير في مختلف مجالات العلـــــوم و التخصصات الإنسانية و الأدبية ، فالباحث في التاريخ مجبر أن يكثر من القراءات المتفرقة و أن تتشعّب اهتماماته ، فلا يحصر نفسه في زاوية معينة تجعله ضيّق الأفق قليل المعرفة قاصرا عن إدراك طبيعة الحـــــــوادث التاريخية ، فيكون حظه من التاريخ كحظ كثير من القصاص الذين عرفتهم الأمة الإســـــلامية في قرونها الأولى الذين كانوا يجمعـــــون الناس حولهـــــــم و يقصـــون عليهم قصصهم و أخبارهم التي لا يُعلم مصدرها غالبا ، فيتلقفها العوام و تختلط حينها الحقائق بالأكاذيب .

إذا فالتخصص في التاريخ لا سيما الإسلامي منه يعني الإلمام و لو بشكل عام بعلوم كثيرة تدفع بالمتخصص إلى التحكم فيمـــا هو مقبـل عليه من دراســـة و بحث و إلى الـــبروز و النبـــوغ ، و بالعمل الجاد و المتواصل تحصل له ملكة علمية تؤهله لتحقيق المسائل التاريخية الشائكة و بسط القول فيها ، و من تمّ الإقتراب من الوصول إلى الحقيقة التاريخية ، و هذا ما تهدف إليه الدراسات الجادة بصفة عامة .

أولا : اللغة .

بحكم انتمائنا لبلد عربي يعتمد اللغة العربية كلغة رسمية يتوجب على الطلبة جميعهم التحكم في لغتهم الأم تحكما تاما ، فلا يعقل أنّ الطالب في المرحلة الجامعية لا يتقن قراءة نص تاريخي بلغة عربية سليمة فصيحة خالية من الأخطاء النحوية ، و لا يجيد كتابة فقرة سليمة المباني متناسقة المعاني ، فالتحكم في اللغة العربية أمر لا مناص منه للطلبة بغض النظر عن تخصصاتهم العلمية ، فهو أمر يدخل في تكوين شخصية الطالب و تبرز مدى تعلقه بأصوله و وطنه و تاريخه .

و لا يكفي لمن يرغب في التخصص أو الإنشغال بموضوع معيّن أن يقتصر على اللغة الأصلية الخاصة بذلك الموضوع ، بل عليه أن يكون ملما بفقه اللغة ، و

الذي يعد أيضا علما مساعدا ضروريا لدراسة التاريخ ، لأنّ اللغة تتطور و تتغير معانيها و معاني بعض مفرداتها من عصر إلى آخر ، فلا بد للمؤرخ إذا أن يفهم النصوص التاريخية الخاصة بالعصر الذي يدرسه بدقة تامة ، و يستطيع الباحث في هذا المجال أن يعتمد على المعاجم اللغوية الموثوق بها مثل لسان العرب لابن منظور في اللغة العربية .

و إذا أراد الباحث دارسة التاريخ القديم و القيام بأبحاث أصلية تعتمد الأصول الأولية في هذا الميدان وجب عليه أن يدرس كيفية قراءة النقوش القديمة ، و هذا ما يسمى بعلم قراءة الخطوط القديمة ، وهو أيضا من العلوم المساعدة المهمة للتاريخ لاسيما دراسة الحضارات القديمة الكبرى ، مثل قراءة الخط المسماري الخاص بحضارة وادي الرافدين ، و الخط الهيروغليفي الخاص بحضارة وادي النيل ، و الخط المسند الخاص بكتابات الدول العربية الجنوبية في شبه الجزيرة العربية ، و الخطوط اليونانية و الرومانية القديمة .

و قد يجد الباحث في التاريخ الإسلامي نفسه مضطرا إلى الرجوع إلى بعض المخطوطات المحفوظة في أماكن متفرقة و التي لم تعرف طريقها للنشر بعد ، فقمن به أن يحسن التعامل مع هذا النوع من المصادر ، و لعل تمكنه من إتقان قراءة المخطوط الذي يكون غالبا مكتوبا بخط عربي قديم يختلف باختلاف المنطقة التي نسخ فيها يفتح له المجال واسعا للإستفادة منه بشكل جيد .

ثانيا : العلوم الشرعية .

تعتبر العلوم الشرعية مهمة جدا في الدراسات التاريخية الإسلامية لاسيما ما تعلق منها بالسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و أزكى التسليم و تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم ، و لعل علوم الحديث أكثر العلوم الشرعية ارتباطا بالدراسات التاريخية .

و علم الحديث وضع المنهجية التي سلكها العلماء الأولون لإثبات الحديث و تنقيته من الدخيل بما وضعوا من موازين منضبطة و ما سلكوا من سبل تجمع بين المنهج السليم و الأمانة العلمية الواضحة .

و يعد علم السير و معرفة الرجال و تاريخهم من أهم علوم الحديث التي لا يستغني عنها طلاب الحديث فضلا عن أئمته و علمائه ، و ذلك لكونه تعرف به أحـــوال الـــــــرواة و منزلتهـــــــم من الثقة أو عدمها ، و قد أولى علماء الحديث في القديم و الحديث علم التاريخ عنايتهم التامة ، فتفننوا في

التصنيف فيه ، و إنّه من نافلة القول أن نذكر بأنّ من أشد العلاقات بين العلوم توطدا العلاقة بين علم التاريخ و علم الحديث ، حيث أنّ الـــــذي يبحث في علـــــــــوم الحديث (من جـــــرح و تعديـــــل و طبقات و غيرها) يحتاج إلى التاريخ لكي يضبط بعض الأشياء ، كما أنّ علم التاريخ يستفيد من علم الحديث في تصحيح الآثار التي ترد في كتب التاريخ ، كما أنّ مصطلح الحديث كان له أثره في منهج نقد الرواية في علم التاريخ ، و يعدّ علماء الحديث أول من نظّم نقد الروايات التاريخية .

و يعتبر الإمام البخاري (ت 256 ه/869م) أمير المؤمنين في الحديث صاحب أهم مصدر في الحديث عند أهل السنة و الجماعة من المحدّثين السابقين الذين عنوا بالكتابة التاريخية الخادمة لعلم الحديث ، و كتابه التاريخ الكبير من أهم الكتب التي تُعنى بالجرح و التعديل و الرجال ، و أما الإمام الحافظ الذهبي (ت 748 ه/1374م) فيصنف في مرتبة عالية ضمن كوكبة المحدثين الذين عنوا بالتاريخ ، و كتبه تملأ رفوف مكتباتنا في مشارق العالم الإسلامي و مغاربه ، و الذهبي في كتبه مثال للمؤرخ الناقد ، فلم يكن جمعه للأقوال و الأخبار لتكثير الأوراق و تسويد الصحائف ، و إنما كان تصنيفه و جمعه جمع الناقد الجهبذ الـــــذي يسبر الروايات و يمحص الأخبار و يبيّن الراجح من المرجوح ، و لا يبتعد عنه من حيث جودة الكتابة التاريخية رواية و دراية قرينـــــــه الإمام ابن كثير (ت 774 ه/1372م) ، و كتابه القيّم البداية و النهاية من أهم المصادر في دراسة تاريخ الإسلام لاسيما في المشرق الإسلامي .

كما أنّ الإلمام بمختلف العلوم الشرعية الأخرى و على رأسها العقيدة و معرفة أصول الفرق الكلامية و الفقه و أصوله و غيرها تدفع بالطالب إلى توجيه اهتماماته لدراسة المواضيع التاريخية التي لها علاقة مباشرة بهذه العلوم ، فيقبل عليها من غير إدبار و يقدم من غير إحجام ، فيحيط بموضوعه و يدرك كنهه و يفك أسراره و يكشف غموضه ، و من تمّ يرتقي بكتاباته و أبحاثه إلى مستوى راقٍ يؤهله لأخذ مكانته ضمن المؤرخين المشهود لهم بالكفاءة العلمية و الروح النقدية .

و يوضح لنـــــا أحد الباحثين المحققين الحاجة المـــــــاسة للمؤرخ المتصدي لكتابة التاريخ الإسلامي للعلوم الشرعية بقوله : " إنّ ربط التاريخ الإسلامي بمختلف العلوم الشرعية أمر لا بد منه ، لأنّه تاريخ عقيدة و شريعة يختلف عن تاريخ بقية الأمم ، و إنّ أي مسألة تاريخية قد ترتبط بمسألة عقدية أو

شرعية ، و قد تجد لتلك المسألة أصلا في العلوم الشرعية الأخرى كعلم العقائد و التوحيد و الفقه و أصوله " .

و لا يفوتنا أن نذكر بما جنته المدرسة الإستشراقية على التاريخ الإسلامي من جرائم في شكل افتراءات و أباطيل حاولت تسويقها في سوق النخاسة التاريخي البعيد عن الإلتـــــــــــزام بالمعايير العلمية و الموضوعية ، و قد جمعوا شتات هذه الأباطيل من مصادرنا المتنوعة و لم يعملوا فيها ما دعوا إليه هم قبل غيرهم من ضرورة التقيد بالمناهج العلمية النقدية الحديثة و التحلي بالموضوعية التامة ، و ما جاءت به كتاباتهم في أغلبها لا تفاجئ الباحث المسلم المدرك لحقيقة عمل هؤلاء ، فهم قوم متشبعون بروح العداء للإسلام الحنيف ، و أعمالهم لا تخرج عن إطارهـــــــا الذي يعلمه الآن العـــــــــــــام و الخاص و هو إطار الصراع الحضاري و الديني بين الشرق المسلم و الغرب النصراني الممتد عبر تاريخنا الإسلامي منذ بداية الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة و أزكى التسليم إلى يومنا الحالي ، و الأمثلة على تجني هؤلاء المستشرقين على ديننا و تاريخنا كثيرة جدا و خاصة ما ارتبط بالسيرة النبوية العطرة و تاريخ الصحابة الكرام ، و لم يعدم المسلمون ردودا على هؤلاء بينوا فيها عوراتهم و فضحوا من خلالهـــــــــا كذبهم و قذفوهم بسهام الحق من أدلة عقلية و نقلية فأصابوهم في مقتل ، و من الردود و المؤلفات العلمية الممتعة و المفيدة في هذا الباب كتاب المحقق شوقي أبو خليل الموسوم بـــ : " الإسلام في قفص الإتهام " ، فقد أحسن مؤلفه في وضع فصوله و أجاد في بيان شبه المستشرقين و أفضل من هذا و ذاك ردوده على دعاوى الحاقدين ، و الكتب في هذا الباب كثيرة تدل على أنّ المسلمين قديما و حديثا دافعوا عن دينهم و عقيدتهم بالحجة العلمية الدامغة .

و ما يؤسفنـــــــــا حقا أنّ بعض المسلمين ممّن تتلمذ على يـــــــــد هؤلاء المستشرقين تبنى أطروحاتهم و أفكارهم و راح ينشرها و يدافع عنها ، فنشطوا لأجلها و بذلوا في سبيل ذلك أعمارهم و سوّدوا صحائفهم مرتدين لباس البحث العلمي داعين للتجديد و التنوير ، فلبّسوا على كثير من المسلمـــــــــين عامتهم و خاصتهم ممّن لم يتحصّن بالعلـــــــــوم الشرعية النقلية ، فكانت النتيجة تحقيق ما رامه كبـــــــــــراء المدرسة الإستشراقية الغربية من انسلاخ حضاري و ضياع فكري و تيه علمي ، و آخر دركات هذا المستنقع الآسن من الأفكار الهدامة

الدعوة لنبذ أصول الإسلام و الإنعتاق منها شعارهم في ذلك تجديد الخطاب الديني و عصرنته .

فعلى المؤرخ المسلم الحاذق الذي يريد التصدي للكتابة في تاريخه أن لا يفصل بين الدراسات التاريخية و الدراسات الشرعية ، فهما كجناحي طائر لا يمكنه الطيران إذا فقد أحدهما ، و بسبب الفصل بين الدراسات المشار إليها آنفا أتيحت الفرصة لعدد غير قليل من الذين لم يتلقوا قدرا كافيا من علوم الشريعة للكتابة في التاريخ الإسلامي ، و من تمّ جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الإستشراقية و تحمل كثيرا من لوثة الإنحراف الفكري و الغزو الثقافي .